

ظهور الإسلام

فى عام " ٥٢٥م " " ٩٧ " ق. هـ يعنى قبل الهجرة النبوية المباركة احتل الأحباش " اليمن " وبعد خمسين عاماً سارَ أبرهة الأشرم " وإلى " اليمن " من قبل ملك الحبشة بجيش عرمرم على " مكة المكرمة " وحاصرها عام ٥٧٠م ولكن حملته هذه باءت بالفشل ، وآب يجر أذبال الخزى والعار ، والخيبة والشنار ، ولم يكن أهل مكة رأوا من قبل " الفيلة " فى الجيوش ، بل كانوا يرون " الخيل " يمتطى صهواتها " الفرسان " فسموا العام بعام الفيل . وفى ذلك العام ولد سيدنا " محمد ﷺ " فى مكة ونشأ فيها يتيماً ، فقد توفى أبوه قبل أن يولد ، ثم توفيت أمه وهو فى السادسة من عمره ، حين كانت تزيه أحواله من بنى النجار وكانت وفاتها فى مكان يسمى " الأبواء " وفى الخامسة والعشرين من عمره تزوج سيدنا " محمد ﷺ " بالسيدة الفضلى " خديجة بنت خويلد " وكانت من أهل الغنى واليسار ، ومن التجار المشهورين بمكة وغيرها من البلدان المجاورة ، ولما بلغ الأربعين من عمره اختاره الله لأداء رسالته ، ثم بعثه رسولاً إلى الناس أجمعين ويأتى الأمر بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يصعد بالدعوة . فيقول الله تعالى :

﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٩٤]

ودعا الناس فى مكة إلى توحيد الله ثلاث عشرة سنة ، ومع ذلك لم يزد المعتنقون للإسلام فيها أكثر من " سبعين مسلماً " عاشوا جميعاً فى اضطهاد وتنكيل ، وتعذيب ، وذل ، وهوان من الكافرين مثل " بلال بن أبى رباح الحبشى وصهيب الرومى " وعمار بن ياسر ، وأبوه ، وأمّه التى رماها أبو جهل بحربة أصابت فرجها ، وأردتها قتيلة ، ثم كانت الهجرة إلى الحبشة ، ثم أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها والنبى ﷺ وكان ذلك عام " ٦٢٢م " فلتقاه أهل المدينة بالحب ، والترحاب ، وخرج النسوة يزغردن ، ويضربن بالدقوف وينشدن .

طالِعَ البدرَ علينا
من ثيبات الوداع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

ثم دخل أهل المدينة في الإسلام ، وبدلاً من تسميتها " يثرب " سموها " مدينة الرسول " وتعد الهجرة مبدأ التاريخ الإسلامي والذي يسمى بالتاريخ الهجري . وبعد ذلك أصبح الإسلام دولةً ، وصار المسلمون أمةً وقد حاول المشركون بالاتفاق مع اليهود في المدينة محاربة الإسلام والمسلمين ، ولكن المسلمين انتصروا على عدوهم في معارك كثيرة كان من أشهرها " غزوة بدر الكبرى " والتي وقعت في السنة الثانية للهجرة ، والتي توافقت سنة " ٦٢٤ " للميلاد و" غزوة الخندق " وكانت سنة " خمس " للهجرة ، و" غزوة حنين " وكانت سنة " ثمان " للهجرة . وقد فتح الله " مكة " على نبيه عليه الصلاة والسلام وعلى المسلمين ، وانتشر الإسلام وعمّ الجزيرة العربية كلها وفي سنة " ١١ هـ " لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بعد جهاد ودعوة إلى الله وتوحيده دام ثلاثاً وعشرين سنة قضى ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة هذه مدة بعثته ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ رسولاً وقائداً ، وحاكماً ، فلما توفي عليه الصلاة والسلام لم يكن للمسلمين خيار سوى اختيار خليفة لهم يدبر أمورهم ويرعى مصالحهم فبايعوا أبا بكر ﷺ خليفة عليهم ، مضى أبو بكر ﷺ " سنين " في الخلافة قاد خلالها " حرب الردة " وبعث الجيوش للفتح ، ولإنقاذ العرب الذين كانوا يعيشون في " العراق " ، و" الشام " يرزحون تحت نير " الفرس والرئم " وبعد " أبي بكر " ﷺ جاء الخليفة " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه ومكث في الخلافة " عشر سنين " فتح العرب فيها " العراق " ، و" الشام " ، و" مصر " ، و" فارس " وفي عهد " عمر " ﷺ اتخذت الدولة الإسلامية شكلها الواضح ، وصارت دولة مرهوبة الجوانب ، وامتدت الفتوحات في عهده واتسعت رقعة الدولة الإسلامية حتى كانت حدودها من الصين شرقاً إلى أن أطل " الإسلام برأسه من فوق جبال البرانس " في فرنسه غرباً .

ويعد سيدنا "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه، تولى الخلافة سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه وهو أمويّ، فاتسعت الفتوحات في زمنه في "مصر وليبيا وفي البحار" ثم تولى الخلافة سيدنا "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه فاستمر الاضطراب، وتوقفت الفتوحات بعد نشوب الخلاف السياسي بين سيدنا "علي بن أبي طالب"، وبين سيدنا "معاوية بن أبي سفيان" وانقسم أنصار سيدنا "علي بن أبي طالب" على أنفسهم فأصبحوا "شيعةً" وهم الذين ناصرُوا الإمام "علي" رضي الله عنه ووقفوا موقف العداء من خصومه، و"الخوارج" الذين كانوا يعدون النزاع بين "علي، ومعاوية" نزاعاً سياسياً، ثم عادُوا "علينا ومعاوية" معاً وحاول الخوارج قتل "علي، ومعاوية" وعمر بن العاص "لأنهم جميعاً في رأي الخوارج كانوا سبباً للخلاف بين المسلمين فلم تسنح الفرصة إلا بقتل "علي" سنة ٤٠ للهجرة - ٦٦١ للميلاد.

الناحية السياسية

إن الدارس لتاريخ الأمة العربية قبيل الإسلام أى فى القرن السادس المسيحى يشاهد أطواراً عظيمة فى نواح كثيرة من حياتها ، فالناحية السياسية كانت مركزية لديهم فى نظام " القبيلة " التى يخضع أفرادها للزعيم واحد يصل إلى هذا المنصب عن طريق عشيرته الخاصة به . وذلك لكثرتهم فى العدد أو لشهرتهم ببعض الفضائل الكريمة ، ونحو ذلك من الميزات التى تؤدى إلى اتفاق الجماعة على اختياره للرياسة ، والسيادة ، والرّعاة ، ويمضى الأيام اكتسب الزعماء حقوقاً على الجماعات تشبه من بعض الوجوه ما يكون للملوك والحكام فى الأمم والشعوب المتمدنة ، فمن ذلك أنهم كانوا يجعلون للسيد رُبْع الغنيمة فى الحرب ، ويخصونه بالصفايا - والصفايا هى ما لا يمكن اقتسامه من فرس كريم ، أو سيف قاطع ، أو حلّية نفيسة ، وله كذلك حكمه فى اختيار ما تقع عليه رغبته من الغنائم ، والنشيطه وهى ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم ، والفضول ، وهو ما قلّ منها حين تقسم فى الطريق يقول شاعرهم :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك النشيطة والفضول

وقد أُلّف الرئيسى هذه الحياة وأحبها لتمكنه فيها من حريته الشخصية ولم يظهر على أهل البادية فى وقت من الأوقات ميلهم إلى الحضر ، واستبدالهم بها سكنى الأمصار ، فاعتزوا بها ، وآثروها على ما كان بها من شظف العيش ، وتساوة الحياة ، ولقد سئل بعضهم " ما كنتم تصفون بالبادية إذا انتقل كل شىء ظله ؟ فقال : " بَخِ بَخِ وهل العيش إلا ناك يمشى أحدنا ميلاً فيرقض جبينه عرقاً كأنه الجان فيركز عَصاه ، وينصب عليها كساءه ، ثم يجلس تحته ، وتقبل عليه الرياح من هذا ، ومن هذا ، فكأنه فى إيوان كسرى " .

تأسيس الإمارات العربية

أومأنا آنفاً إلى فقدان الوحدة السياسية ، فقد كان يوجد بعض الأنظمة السياسية بين سكان الحجاز في مكة ، وفي الإمارات العربية التي تأسست إحداها في العراق ، وكانت مواليه لبلاد الفرس ، والأخرى في بلاد الشام ، وكانت تابعة لبلاد الروم ، وكانت الثالثة في الوسط وهي إمارة " كندة " في بنى أسد وأحلافها وكان ولاء الكنديين للملك " غسان " لما كان حادثاً بينهم وبين ملوك " المناذرة " من الخصومة والعداوة ويكن للباحثين أن يجدوا ظلاً للنفوذ السياسي في هذه الإمارات الثلاث ، فقد كانت لهم إقطاعات وحرس دائم ومساح للجند تشبه من كل الوجوه ما يقوم في الممالك الناشئة في العصور المتقدمة .

وقد زهت قريش في أوائل القرن السابع بعد اندحار الحبشة ، ورجوع " أبرهة الأشرم " بجيشه عن غزى " الكعبة " وازداد من ذلك الوقت نفوذها في الجزيرة العربية وتامت بتحقيق كثير من المبادئ العالية التي قلما توجد إلا في الأمم التي تكون قد بلغت من الرقى العلى ، والمدنية الإنسانية شأواً بعيداً من ذلك " حلف الفضول " الذي تعاقده فيه أشراف " قريش " على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً ، ولا حلاً ، ولا متنصفاً إلا أعانوه برفدهم ، وفضول أمواليهم ، وقال رسول الله ﷺ " شهدت في دار ابن جدعان حلفاً لودعيت إليه لأجبت " ومن ذلك أيضاً " دار الندوة " التي أقيمت تجاه " الكعبة " ، وهي " دار قصي بن كلاب " وكانت قريش لتبرأ لها بأمر " قصي " تجتمع فيها للمشورة في الجاهلية ، ولإبرام الأمور وبذلك سميت " دار الندوة " وذلك لاجتماع الندى فيها واجتماع القرشيين

فيها لاغتيال النبي ﷺ ليلة هجرته ، وهو أمر معروف ومشهور سجلته كتب السير والتواريخ .

ومن ذلك أيضاً " الحكومة ، والرفادة ، والسقاية والحجابه ، والسّدانة والإفاضة " وكلها مناقب استأثرت بها جماهير " قريش " وامتد لها بذلك نفوذ على العرب جميعاً تظاهرت على الريادة أسباب قوية منها :

" جوارهم للبيت ، واشتهارهم بالتجارة " وما كان لهم من التجارة والبسطة واكتسابهم لكثير من محاسن القبائل الوافدة عليهم في موسم الحج ، وفي الأسواق التي كانت مطبقة بمكة وكأنهم في الحملة يتهيأون بهذه العوامل وبغيرها من وحدة اللسان ، والاشترک في البيئة ، والجنس ، وانتشار النفوذ من حياة الهمجية والفوضى إلى استقبال العصر الجديد من الإسلام الذي جمع منهم الشمل ، ولم شعّتهم ، وصيرهم أمةً واحدةً يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولم يلبثوا أن ملأوا الحياة رضاءً ، وعدلاً ، وأشرقت آفاق الأرض بعوالمهم وطلأّتهم الذين سرعان ما خفقت ألوية عزّتهم على أكثر المعمور من أقطار الأرض هنالك صارت العرب شعباً واحداً ، وأمة سياسية خالدة ، أخذت مكانها بين كبريات الأمم في التاريخ .